

## تاريخ بناء القرويين . . .

٢٤٥ - ٢٦٣ - ٣٠٦

إن كل أوائلك الذين كتب لهم أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً أن ابن أبي زرع في كتابه القرطاسين نقلاً عن أبي القاسم ابن جنون في تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حدثوا حذوه من أمثال الجزنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في تاريخه : العبر ، وابن القاضي في جذوة الاقتباس وغير هؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع في حفر أساسه والأخذ في أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ١٨٥٦) بمطالعة العاهل الإدريسي يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه لإستسلام للشك فيها والتردد أمامها سيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعني وقت بني مرين أوائل القرن الثامن الهجري ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للإدارة ، أنها لوحة منقوشة عشر عليها — عند أعمال الترميم — في البلاط الأوسط فوق قوس الحراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها — في جملة ما كتب — بخط كوفي إفريقي عتيق : « ... بنى هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن أدريس أبقاه الله ... ونصره نصراً عزيزاً » .

وما دمنا في استعراض الآراء حول تاريخ بناء القرويين لا بد أن نعرض لرأي ثالث الدكتور أوسكار لانز (١) ، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عشر عليه

فوق « صفيحة فضية » مغروزة في أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « ... بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبي ... » أي أي في أيام ولاية يحيى الرابع ...

وحتى نرجع إلى حديث فاطمة وداود. نشير إلى أن رواية الدكتور لانز ، لأنها أي وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيما مع إباحة الطالب إدريس الذي زوده بهذه الوثيقة والذي لم يكتبه أنه وجد وصلوبة في الوصول إلى بقية النقش ، الأمر الذي يقرب إلى « أساطير » السياح أكثر. مما يخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق — حسابياً — يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس ... وبعد فلنرجع إلى ابن أبي زرع ، واللوحة المنبمثة ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف في كلمة وجيزة عن عن الإمام داود بن أدريس تاركاً التفصيل للبحث الذي كنت كتبه خصيصاً عن هذه الشخصية (١) :

بالرغم من أن جميع المؤرخين تخلوا على داود هذا بأكثر من كلمة واحدة تتلخص في أنه « لما توفي إدريس الثاني قام بالأمر بعده ابنه محمد ، وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار أخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذي استأثر بإقليم تازة . وقد رددت سائر المصادر صدى « الفتنة » التي نشبت بين بني إدريس على أثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد بحال لذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الاسم يعد في عداد الضائعين لولا عناصر ثلاثة :

أولها : اليعقوبي (٢) الذي يذكر أن داود بن إدريس كان والياً على عدوة

(١) النازي ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة إبريل ١٩٦٠ — مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢ .

(٢) اليعقوبي ، أخبار البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٠ — ص ١٣٧ Bsohōra Heapēria

الأندلس وأنه كان «يدافع» يحيى صاحب عدة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى ،  
ثانياً : الدرهم الموجود بالمسكبة الوطنية بباريز الذي يحمل اسم الإمام داود بن  
ابن أدريس (١) .

ثالثاً : هذه اللوحة الأثرية التي يحتفظ بها الآن في المركز الرئيسي لتصلحة الأثار  
بالملكسة المغربية .

وبعد هذا نرجع إلى الحديث ...

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟ .

لقد كنت كتبت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة في الموضوع نشرت في مختلف  
المجلات العلمية سواء بالمغرب (١) أو القاهرة (٢) أو تونس (٣) وأسبانيا (٤) ، وكنت  
قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم يساعدون على إضفاء الضوء  
على هذا الحقائق ، ومن سوء الحظ أننى إلى الآن لم أقف على « رد فعل » من  
طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التي تلقيتها من بعض  
الأساتذة الأجلاء الذين جرحوا على أن يجعلوا نقل القرطاس في نجوة من  
الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض « تواتراً »  
متوارثاً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر  
وغرزت هنا . . . وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة التي رجح  
فيها النفوذ للشرفاء الأدارسة بواسطة محمد بن على الجوطلى (٥) .

(١) التازى — مجلة التربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٠٠ - ١٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) التازى - مجلة الفكر - السنة الخامسة عدد ٦ ، مارس ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٤) التازى - مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد - المجلد السادس ، ١٩٥٨ ،

ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٥) Deverdun mélanges d'histoire et d'Archéologie T. 11 page 72 (٥)

وفي الناس طائفة ثالثة يصممون على أن يأخذوا بما ورد في مدلول اللوحة نظراً أولاً لكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثر في هفوات عن القرطاس ، وثالثاً لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبي والبكري وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم لم يرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذي عرف في القرطاس ...

فماذا تكون الحقيقة ؟ .

أما « التوصية » بنبد اللوحة فأمر سلبي لا يسمح به المؤرخ النزيه ، وأما عن أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فإنه يبعده عندي أن التاريخ ظل صامتاً صمتاً مطلقاً عن مؤسسات داود ابن إدريس في مناطق نفوذه فلا يمكن أن ندعى إذن أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التي كانت على ذلك المسجد هي التي نقلت لكن إلا بعدد هو القول بأن عملية النقل تمت على عهد الوطاسيين مع أنها وجدت تحت الجبس الذي ضرب — منذ نهاية دولة المرابطين — على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ أبداً عن إزاحة « التبليط »<sup>(١)</sup> الذي قام به فقهاء فاس والمسؤولون في الدولة الموحدية ، لذا فأمام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتباراً لما نقل عن اليعقوبي وعرف من أمر السكة الداودية واحتراماً لما نقل عن أبي القاسم بن حنون<sup>(٢)</sup> ، وأبي محمد عبد الملك بن محمود الوراق<sup>(٣)</sup> مما تردد صداه في الأنيس المطرب وانعكس في زهرة الآس والعبر والحدوة ، ونظراً لأننا لم نعتبر لحد الآن علي نصي تاريخي آخر يعزز بناء الإمام داود لجامع القرويين ،

(١) مجلة كلية الآداب — الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ ص ٦٠ — ٨٨ —  
المؤتمر الثالث للآثار العربية ، نشر الجامعة العربية صفحة ٤٤٥ — ٤٦٥ ، التنازي :  
جامعة القرويين في أحد عشر قرناً ، طبعة الحمدية ص ٨ .

(٢) رسالة في نذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهولة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع  
لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩١٧٢:٢٢ ح .

(٣) مخطوط في تاريخ البلاد سنة من أكوينها من مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة  
الدول العربية .

ونظراً لسكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول  
مراعاة لكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

فإما أن يكون ابتداء البناء كان في رمضان ٢٤٥ في أيام يحيى ولكنه استمر  
إلى سنة ٢٦٣ أيام داود بن إدريس وتكون فاطمة استغرقت في صومها كل هذه  
المدة ، ويؤيد هذا الرأي أولاً ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف في هذه  
الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل مواد البناء من  
نفس البقعة تحريماً ، وثالثاً أن المصادر التاريخية إنما تحدثت عن ابتداء البناء ولم  
تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم في نفس السنة نظراً لسكون الجامع — ومساحته  
لا تصل إلى ألف متر مربع — لا يمكن التهاون في أمر بنائه طيلة ثمانية عشر  
عاماً . . . ويفسر وجود داود بن إدريس هنا بأنه في الفترة التي كان « يدافع »  
فيه يحيى ، تمكن في بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليداً  
لهذا الفوز الذي حصل عليه في عدوة القرويين ورغبة في أن تعرف الأجيال القادمة  
أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكاري في هذه الجهة ، ولما  
كان الملوك ، والرؤساء يختارون أبرز مكان وأشهره لتخليد أسمائهم ، وكان  
أفضل مكان في المسجد وأطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه « الأرزة » عليه  
حتى تظل أمام المتعبدين والقاصدين . بقي أن يتسائل عن اختفاء اسم فاطمة من  
اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

فإننا نعلم أن التقاليد القديمة لا تلج في ذكر أسماء النساء على المباني سيما مع  
ما أثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقديراً لهم  
وتكريماً لمقامهم .

وبعد . . . فهل ستكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟

عبد الرهمن الثاني